مَنَافع الصَّيْد

خير ما نفتتح به الحديث عن منافع الصيد، كلمة أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»: «لن تخور قواكم ما تروتم ونزعتم»، يعنى رضى الله عنه: لن تضعفوا ما داومتم الوثوب على ظهور الخيل، والرمى عن القسى بالسهام.

وقد أجملت هذه الكلمات منافع الصيد إجمالاً جرى بها مجرى الحكم المسلمة والأمثال السائرة. فليس يرتاب الذين يعلمون فى أن الوثب على الخيل كالنزع فى القسى، كلاهما أصل فى باب الصيد أصيل، وكلاهما يستدعى من النشاط وخفة الحركة فى الجرى والمطاردة ما يذيب الشحم ويمنع تراكم اللحم، فإذا الصائد كما تقول زينب بنت الطثرية تصف أخاها بالفتوة:

فتى قد قد السيف لا متآزف[1] ولا رهل لباته وبأدله[2]

تقول: إنه كالسيف خفيف اللحم ممشوق القد.

ولكى يكون القول فى هذا الباب منضبطًا ملمومًا ينتفع به الناظر فيه، ينبغى تفصيل منافع الصيد بتقسيمه إلى ما يتصل بالقوى الجسمانية والقوى النفسانية، فذلك أعون على الفهم وأحرى بالاتباع.

صحة للبدن:

لا ريب فى أن منافع الصيد كثيرة، كثرة دعت الناس إلى مزاولته والعناية

(١) لرجل لقصير

(٢) لحم الصدر

به، على اختلاف طبقاتهم وتباين أغراضهم. فالصعلوك المنسحق الأطمار، كالملك العظيم الجبار، كلاهما عليه حريص، وبه مشغوف. وكلاهما يبتغى به اللذة، وينشد فيه حسن العاقبة، على أن أحدهما أبدًا غانم، والآخر أبدًا غارم وهما على ذلك من حوله وفى مجاله على سواء.

ألطف غذاء:

أشرف غذاء يحفظ الأعضاء ما شاكلها، وليس شىء أشبه بها ولا أسرع استحالة إليها من لحم الصيد. وأفضل اللحمان ما استدعته الشهوة، وتقبلته الطبيعة. ولا لحم أسرع انهضامًا من لحم الصيد المطرود المكدود، لأن ذلك ينضجه ويهريه، ويسقط عن الطبيعة بعض المئونة فى طبخه، إذ قد قام فى النفس من العشق له، والتشوق إليه، مالم يقم فيها لغيره من المطاعم. فإذا وافى الأعضاء - وقد تقدمت له هذه المقدمات - أحالته بالقبول له فى أسرع زمان. وإذا كان الحيوان غليظًا، عكست هذه الأسباب طبعه، ونفت ضرره، وقمعت كيموسه[١].

وربما أكل المرء اللحم اللطيف الخفيف - على تعنف وتكره - فكان إلى أن يأخذ من الأعضاء، أقرب من أن تأخذ منه الأعضاء.

رأس اللذائذ:

العرب الصرحاء - مهما كانت عراقتهم فى الملك وحظهم من الجاه والسلطان - لا ينفكون يفخرون بالصيد وأكل لحمه، على ما يقول امرؤ القيس:

---

(١) الكيموس: الخلاصة الغذائية.

فعادى عداءً بين ثور ونعجة دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل

يصف طراده الوحشيات بفرسه السريع الذى لا يعرق مع سدة الحضر وطول المشوار، حتى إذا أدرك الصيد، ثورًا كان أو بقرة، رماه فأصماه. ثم أخذ الطهاة من أهل الحى يشتغلون بإنضاجه، شرائح مشويه على النار أو لحمًا مطبوخًا فى القدور.

وفى شعر اخر له، سمى الصيد لذة، وجعلها علماً عليه، ثقة منه بوضوح المعنى المراد، لعلم العرب به واشتهاره فيهم وفضله بينهم، فذلك قوله:

كأنى لم أركب جوادًا للذة ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق[1] الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

يصف الشاعر نفسه - على طريق الفتوة الجاهلية - بأنه فارس يركب من أجل اللذة التى هى الصيد، وبأنه يستمتع بالمراة، ويذكر أنه يستري الخمر ليشربها مع خلانه من الفتيان، ويعشى ميادين القتال لحماية حار وصيانه حرمات. وهو بذلك يصف نفسه بالجاه والرفاهه وبالفتوة والشجاعه. وليس يخفى وجه الحسن فى قرنه لذة الصيد على ما فيه من مشقة، إلى لذة الأستمتاع بالمرأة، وقرنه لذة الشراب على ما فيها من الدعة والانبساط، إلى الذياد عن الحمى على ما فيه من ركوب الشدائد وبذل النفوس.

والحياة على هذه الصورة هى المثل الأعلى للفتى العربى فى الجاهلية كما فصل ذلك طرفة بن العبد البكرى فقال فى معلقته:

---

(١) سبأ الخمر وسبأها: شراها ليشربها. الزق: بالكسر: جلد يجعل لحفظ الشراب

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وحقك لم أحفل متى قام عودى[١]
فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد[٢]
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بآنسة تحت الطراف الممدد[٣]
وكرى إذا نادى المضاف مجنّبا كسيد الغضا ذى السورة المتورد[٤]

وقاية وعلاج:

يقول أهل العلم: «قلما يعمش ناظر زهرة، أو يزْمن مريغ طريدة».

يعنون أن من أدام النظر فى البساتين فقد سلم نظره، وأن من أدمن الحركة فى الصيد فقد آمن الزمانة.

ولا ندحة لمن يطارد الوحش عن أن يستحضر فرسه ليعادى به الصيد ما وجد إلى ذلك سبيلًا، حتى إذا ضاقت عليه المسالك، ترجل فتابع طريدته عدوًا على قدميه، لا يصده عن ذلك جاه أو سلطان. والذين يتتبعون سير العظماء ممن أُغرى منهم بالصيد يرون من ذلك ما لا يخفى ولا يجحد.

وربما سنح للصائد من النشاط والأريحية - ولا سيما مع الظفر بالصيد - ما يشتد به طربه حتى يكون أقوى طربًا بذلك منه عند سماع الألحان وشاجى النغم من ذوى الإحسان. فربما قويت النفس حينئذ وانبسطت الحرارة الغريزية فعملت عملها المحمود فى كوامن العلل، فإذا ذو الصداع المزمن يعدو إلى الصيد متعبًا مألومًا، ثم يعرض له رعاف يحلل ما كان فى

---

(١) كناية عن الموت.

(٢) نوع من الخمر إذا أُضيف إليه الماء أرغى.

(٣) الخيمة.

(٤) حماية الحمار.

رأسه، فإذا ذو الخراج الذى كان يعنته دون أن يجد السبيل إلى بطِّه[١] ليستريح من الامه، تقوى الطبيعة عليه فينبسط من تلقاء نفسه، فيستريح بعد طول تعب وشدة معاناة. وإذا ذو جرح مندمل على نصل سهم كان يحتمل منه ما لا يطاق فلما انبسطت حرارته الغريزيه، بدر ذلك النصل من جسده فى شدة حركته وتكامل أريحيته.

وما أكثر ما تعكس عوارض الصيد ذميم الحالات، فتئول إلى أضداها من الخيرية، حتى يقوى قلب الجبان، وتنبسط يد الشحيح، وينطلق وجه العبوس.

وما فتئ الناس يذكرون من منافع الصيد وفوائده، التبرز على ركوب الخيل صعودًا وحدورًا وكرًّا وانكفاءً، وتعطفًا وانثناء، إذ بذلك يستفاد النشاط والأريحية، والمنافع الظاهرة والباطنة والمرانة والرياضة، والخفوف والحركة وانبعاث الشهوة واتساع الخطوة، وخفة الركاب والأمن من الأوصاب فالصيد فى مجال صحة الأبدان لا يخلو فى حال من أن يكون وسيله وقايه، أو سبيل علاج.

صيانة للمروءة:

لا يكاد يحب الصيد ويؤثره إلا رجلان متباينان فى الحال، بمقدار تقاربهما فى كبر النفس وعلو الهمة، أحدهما وجيه ذو ثروة، والآخر فقير ذو زهادة. فالوجهاء الأثرياء يتداولونه عا يؤثرون من الطب وحب الغلب وإيثار الظفر وموقع ذلك من نفوسهم، أو للطرب واللذة والابتهاج بظاهر العدة والعتاد. والفقراء الزهاد، يتداولونه بما يؤثرون من ظلف[٢] النفوس عن دنئ المكاسب،

(١) شقه.

(٢) منع النفوس

والرغبة بها عن مصرع المطالب، وحقن ماء الوجوه عن غضاضة المهن، وتقاضى أجرة العمل. ومن هؤلاء الفقراء الزهاد من يقتات من صيده ما يكفيه ثم يتصدق بما يفضل عنه، توقيًا من المعاملة والمبايعة، ومنهم من يقيات من صيده ما يكفيه ثم يبيع ما فضل عن قوته، ليعود بثمنه فى سائر مصلحته.

وقد كان من الفقراء الزهاد الخليل بن أحمد الفرهودى مع فضله وأدبه وكمال علمه، فلم يكن يملك من دنياه سوى باز يقتنص به ولبنة يوسدها خده، مع أن جلة الناس فى عصره كانوا يدعونه إلى مشاركته فى معيشتهم الفياضة بالمتارف فلا يثنيه ذلك عن مذهبه الذى آثره لنفسه ورضى به فى حياته.

وقد كان فى ذروة الذين كاتبوه فى هذا الشأن سليمان بن على الهاشمى، فعرض عليه عرفانًا لفضله وتقريرًا لمنزلته، أن يشاركه نعمته التى كان يتفيأ ظلالها فى ثراء واسع وجاه عريض، غير أن الخليل - رحمه الله - أبى أن يستجيبه،، فكتب يقول:

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحًا بنفسى، إنى لا أرى أحدًا ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال

زاد للآخرة:

قلما ترى صائدًا إلا تبينت فيه من سيماء القناعة وعلامة الزهادة والصيانة، ما لاتتبينه فى غيره من سائر المخالطين للناس، ثم لا تكاد تسمع منه ولا عنه ما تسمعه من سائرهم وعنهم.

وقد قيل لزاهد مشغوف بالصيد: لو التمست معاشًا غير هذا، لكان

خيـرًا. فقال: إذن، لا أجـد مثله، إن هذا معـاش يجدى عـلىَّ من حيث لا أُعامل فيه أحدًا، فأتفرد به من الجملة، وأسلم فيه من الفتنة، وألتمـه فى الخلوات والفلوات التى هى مواضع أهل السياحة، ومظان أنضـاء العبادة.. وقلما خلوت من حيوان عجيب فى خلقه، لطيف فيما يلهمه الله من احتيال لرزقه، فيحدث لى فكرة فى عظيم قدرة الله جل وعز على تصاريف الصور واختلاف التراكيب، تعجبًا من مذاهب الوحش والطير فى مساعيها لمعاشها، وتمحلها لأقواتها، مع ما يلحقها حين تقع فى الأشراك وترتبك فى الحبائل، من الحتوف التى يسوقها إليها الحرص وتنصبها لها الأطماع.. فأنا - من ذلك - بين متبلغ للدنيا ومتأهب للآخرة.